محاضرات تكميلة لفائدة طلبة الفصل الرابع، مسلك علم الاجتماع

وحدة علم الاجتماع الحضري (1)

لقد تعرضنا في المحاضرات السابقة إلى السياق العام الذي ظهر فيه علم الاجتماع الحضري، وبعد ذلك باشرنا مطارحة أهم إشكال في هذه الوحدة، وهو إشكال معرفي\ابستمولوجي يتعلق بتحديد هذا الفرع من علم الاجتماع وموقعه ضمن الفروع الأخرى. لهذا الغرض كان علينا الوقوف عند منهج وموضوع علم الاجتماع الحضري. ولم نتوقف كثيرا عند إشكالية المنهج لأنها لا تطرح مشاكل كبيرة، ولأن فروع علم الاجتماع كلها تشترك في اعتماد مناهج أو منهج ومقاربات معينة؛ وإن كان هذا لا يعني أن مسألة المنهج في علم الاجتماع الحضري هي موضوع اتفاق. لكن الإشكال الفعلي الذي واجهنا هو المتعلق بتحديد موضوع هذا العلم.

في هذا السياق كنا قد اعتمدنا على مقالتين لأحد علماء الاجتماع المتخصصين في السوسيولوجيا الحضرية وهو مانويل كاستيلز. المقالتان هما

- y a-t-il une sociologie urbaine ? هل هناك سوسيولوجيا حضرية؟
- théorie et idéologie en sociologie urbaine, النظرية والإيديولوجيا في السوسيولوجيا الحضرية[1]

وخلال تتبعنا لإشكالية تحديد موضوع علم الاجتماع الحضري مع ما نويل كاستيلز، فقد ناقش العديد من المقترحات كمواضيع (مثل التحضير والتحضر، الثقافة الحضرية، ..) لكنه وصل إلى أن السوسيولوجيا الحضرية لا زالت تجري وراء موضوع ضائع A LA RECHERCHE DE l'OBJET PERDU . وهو العنوان الذي كان مانويل كاستيلز قد وضعه للفقرة الأخيرة من مقالته المذكورة "هل هناك سوسيولوجيا حضرية؟ Y a-t-il une sociologie urbaine

وبعد الوصول إلى هذه النتيجة ذهب كاستيلز للبحث في الدراسات الحضرية التي ركزت على **وصف الأشكال الجديدة لزرع وتثبيت الأنشطة والساكنة مجاليا**، وعلى وضع الروابط بين البنية الاجتماعية وتنظيم المجال. معتبرا بأن المجال\الفضاء espace موضوع مشروع للتحليل السوسيولوجي، لكنه **موضوع واقعي، وليس موضوعا نظريا**. فالفضاء أو المجال espace عنصر مادي وليس تركيبا مفاهيميا. لكن هذا الاعتبار السوسيولوجي

[1] - Manuel Castells, - y a-t-il une sociologie urbaine ? In: Sociologie du travail, 10eannée n°1, Janvier-mars 1968. pp. 72-90

- Manuel Castells, Théorie et idéologie en sociologie urbaine, in sociologie et sociétés, volume 1, N° 2, les presses de l'université de Montréal,

لتنظيم المجال لا يقود إلى تشكيل موضوع نظري مستقل، بل فقط إلى إبراز علاقة هذا المجال مع بقية الجسم التقنواجتماعي technico-social.
(Théorie et idéologie en sociologie urbaine, p. 180.)

وبعد ذلك قام كاستيلز بدراسة مساهمة دونكان **Duncan** الذي حاول بناء موضوع لهذا العلم، معتبرا بأن الظواهر الحضرية متعلقة ومتوقفة على العلاقات المتبادلة بين أربعة عناصر قاعدية\ أو أساسية**:**

الساكنة، والبيئة، والتنظيم الاجتماعي والتكنولوجيا.

واقترح كاستيلز إضافة عناصر أخرى كالعنصر النفسي ـ الاجتماعي أو الثقافة أو غيرهما، لكنه خلص في النهاية إلى القول بأنه"مهما يكن فالأمر لا يتعلق بموضوع نظري خاص، بل بنظرية عامة حول البنية الاجتماعية" (Théorie et idéologie en sociologie urbaine, p. 180-181)

كما أن الإيكولوجيا البشرية أو النسق الإيكولوجي الذي طرحه ماكنزي Mckenzie لا يشكل أيضا موضوعا نظريا خاصا، بل أفقا يحيل على مجموع البنية الاجتماعية.

وهكذا يستمر كاستيلز في دراسة كل موضوع على حدة وينتهي إلى القول بأن "السوسيولوجيا الحضرية ليس لها موضوع نظري خاص". بل إن ما يميزها، فضلا عن غياب موضوع نظري خاص، هو أيضا "غياب التحديد الدقيق لموضوع واقعي". لأنه، وانطلاقا من التعارض حضري\ قروي الذي اعتدنا الأخذ به، يجب أن يكون كل شيء إما حضريا أو قرويا. لكن معايير التمييز والتصنيف لم تعد تسعفنا لحصر كل مجال على حدة وكما قلنا سابقا، فالقروي والحضري أصبحا متداخلين ويصعب الفصل التام بينهما، والقروي أضحى مندمجا في الحضري، والسوسيولوجيا الحضرية ستكون إذن، سوسيولوجيا المجتمع الحديث، مجتمع الجماهير. ومصطلح حضري urbain يبقى بكل تأكيد إيديولوجياً رغم استمرار استعمالنا له في لغة التداول اليومي. (Ibid., p. 182)

إن هذا التداخل بين المدينة والقرية وصعوبة الفصل بينهما، هو ما جعل بعض الباحثين يتحدثون عن نهاية المدينة كما هو حال هارموت هوسيرمان Harmut Häussermann (وهو سوسيولوجي ألماني، توفي سنة 2011) في مقال له بعنوان "نهاية المدينة الأوربية" La fin de la ville européenne ضمن مؤلف جماعي تحت عنوان "المدينة من جديد؟: نقاش حول عودة الحضري" A nouveau la ville ? Un débat sur le retour de l'urbain

ولكن إذا وجدنا أنفسنا أمام هذا الوضع، وإذا لم يكن هناك تحديد لواقع معين يمكن أن نطلق عليه اسم "حضري" فمن الأفضل، حسب مانويل كاستلز، أن تدرس السوسيولوجيا الحضرية نوعين من المشاكل:

1 ـ العلاقة بالمجال\ أو الفضاء le rapport à l'espace

2 ـ سيرورة أو عملية الاستهلاك الجماعي le processus de consommation collective

لكن إذا كانت الموضوعات المرتبطة بهذين العنصرين موضوعات سوسيولوجية بامتياز فإنها متداخلة مع السوسيولوجيا الصناعية، لينتهي من جديد إلى القول بأن السوسيولوجيا الحضرية ليس لها موضوع واقعي خاص.

وهنا نصل مع مانويل كاستيلز، بعد بحث عدد من العناصر المرتبطة بالمدينة، إلى خلاصة عامة وهي أن السوسيولوجيا الحضرية ليس لها موضوع نظري خاص وليس لها موضوع واقعي خاص. لكنه مع ذلك بقي متشبثا بالبحث عن عناصر معينة يمكن أن تشكل موضوعا للسوسيولوجيا الحضرية. فحاول حصر عناصر النسق الحضري في أربعة عناصر:

- P : production ـ كل ما يتعلق بالأنشطة الإنتاجية: خدمات صناعة وسائل الإعلام...
- C : consommation ـ ما يتعلق بالاستهلاك
- E : échange ـ ما يتعلق بالتبادل
- G : gestion ـ عملية تدبير وتنظيم العلاقة بين العناصر الثلاثة السابقة

وقد اعتبر بأن هذه العناصر ليست بسيطة وإنما هي عمليات اجتماعية، والتداخل بينها يعبر عن قوانين بنيوية للتشكيلة الاجتماعية التي تندرج ضمنها الوحدة الحضرية l'unité urbaine لكنه وجد بأن هذه العناصر تحيل على ما يسميه التخطيط الحضري la planification urbaine. فتابع تحليله للعلاقات بين هذه العناصر والتخطيط الحضري لينتهي في خاتمة مقال "النظرية والإيديولوجيا في السوسيولوجيا الحضرية" إلى خلاصة أكثر تشاؤما وهي **نهاية السوسيولوجيا الحضرية** la fin de la sociologie urbaine وقد انتهى كاستيلز إلى هذه الخلاصة لأنه، في عمل آخر تحت عنوان صراعات حضرية Luttes urbaines بين بأن المسألة الحضرية تبقى عصية عن التحديد، ولم يكن بالإمكان اختزالها، والقول بأن ما يتعلق بهذه المسألة هو "كل ما يحدث في المدن"، لأن المجتمعات المعاصرة أصبحت في نظره شيئا فشيئا أكثر حضرية وبشكل كامل،.... ولأن مصطلح حضري ليس صالحا لأنه عام. ولذلك أبقى على هذا المشكل قائما.[2]

هذا التعقد الذي أصبحت عليه الظاهرة الحضرية في نظر مانويل كاستلز هو نفس التعقد الذي وقف عنده هنري لوفيفر (1901 - 1991) Henri Lefebvre في كتابه "الثورة الحضرية" حينما عبر عن ذلك بالقول: "الظاهرة الحضرية تحيرنا حاليا بضخامتها، تَعقدها يتجاوز وسائل المعرفة وأدوات الفعل العملي. إنها جعلت نظرية التعقيد théorie de la complexification، والتي تنتقل بموجبها الظواهر الاجتماعية من تعقد نسبي إلى تعقد أكبر، شبه بديهية". مؤكدا على أن "الروابط الاجتماعية ليست بسيطة، حتى في المجتمعات القديمة"[3]

[2] - Manuel Castells, Luttes urbaines, Maspero, Paris, 1975, p. 8.
[3] -Henri Lefebvre, 1970, La révolution urbaine, Gallimard, Paris, p. 64.

ويضيف في كتابه الآخر "من القروي إلى الحضري" Du rural à l'urbain، "لا أعرف أي لغة تمكننا من الكشف والتحليل العميق للواقع الحضري، ولكن مع ذلك يجب أن نحاول"[4]
إن تعقد هذه الظاهرة الحضرية هو الذي منع السوسيولوجيا الحضرية من إيجاد موضوع خاص بها، سواء كان نظريا أو واقعيا، يجعلها تتموقع كتخصص علمي حسب مانويل كاستيلز؛ حيث اعتبر بأن مردَّ ذلك أيضا يكمن ويتمظهر بشكل واضح في تواجدها بين التخصصات ودورها البيتخصصاتي son rôle interdisciplinaire؛ أي أنها توجد في ملتقى التخصصات وتجمع بين العديد منها، وإن أكد على أهمية وضرورة هذه البيتخصصات على مستوى التواصل وإقامة علاقات بين النتائج التي تتوصل إليها، بشكل مستقل، الفروع العلمية المختلفة، بخصوص نفس الموضوع الواقعي. لكنه وبعد التفسير والتبرير سيرجع ليستدرك ويقول بأن "نهاية السوسيولوجيا الحضرية ما هي إلا تعبير إيديولوجي يهدف إلى إثارة الوعي بالمشاكل النظرية للتحليل السوسيولوجي لسيرورات الاستهلاك والتي لم تجد حلا بعد" (Théorie et idéologie en sociologie urbaine, p. 190)
وهكذا سيعتبر بأن المعارف التي راكمها الباحثون في مجال هذا التخصص، ومحاولاتهم لتحديده، تشكل أرضية يُبنى عليها لتحليل ممكن للمشاكل الواقعية التي لا زالت عالقة، وذلك داخل الإطار العام للسوسيولوجيا. فأبقى على مشكلة تحديد موضوع علم الاجتماع الحضري قائمة، مؤكدا على أن "بدايات علم معين ونهاية إيديولوجيا ليسا عمل أفراد أو مؤسسات وإنما هو تعبير عن وضعية معطاة للبنية الاجتماعية". (Ibid., p. 190)
وقد يبدو هذا المشكل المرتبط بتحديد موضوع هذا العلم طبيعيا، حينما نعلم بأنه علم حديث لم تبدأ ملامحه الأولى إلا حوالي عشرينيات القرن الماضي من خلال الأعمال التي دشنها رواد مدرسة شيكاغو السوسيولوجية وعلى رأسهم روبير إزرا بارك. ويكفي أن نشير إلى أن السوسيولوجيا الحضرية لم تتأسس بشكل فعلي كحقل للبحث العلمي في فرنسا إلا بعد سنة 1945. ولم تتطور منذ ذلك الحين بشكل منتظم وخطي ولا تصاعدي، حسب إيف غرافماير Yves Grafmeyer.[5]
طبعا، هذا الإشكال المتعلق بتحديد وحصر موضوع السوسيولوجيا الحضرية ليس مطروحا بحدة لدى بمانويل كاستيلز فقط، بل تعرض له العديد من الباحثين السوسيولوجيين الآخرين، لكن في المقابل هناك من قدم حلا فاقترح موضوعا معينا لهذا التخصص أو الفرع من علم الاجتماع. وكنموذج لهؤلاء نتعرض اقتراح السوسيولوجي الفرنسي فرانسوا أباليا François Aballéa. ففي مقال له بعنوان "هل هناك أزمة سوسيولوجيا حضرية؟"

[4] - Henri Lefebvre, 1970, Du rural à l'urbain, Editions Anthropos, Paris, p. 236.

[5] - - Yves grafmeyer, « la sociologie urbaine dans le contexte français », site web Sociologies (journals.openedition.org/sociologies/4175) , p. 1.

« Y a-t-il crise de la sociologie urbaine? »، وكأنه يرد على مانويل كاستيلز في مقاله "هل هناك سوسيولوجيا حضرية؟؟) يقترح تحديدا لهذا التخصص من خلال تحديد موضوعه. طبعا لم يتوصل أباليا لهذا التعريف إلا عبر بحث معمق، حيث أقر، هو الآخر بأزمة السوسيولوجيا الحضرية وبأنها أزمة موضوع في المقام الأول. وفي مقال آخر بعنوان "الاتجاهات الكبرى في السوسيولوجية الحضرية" اعتبر **أباليا** بأن تاريخ السوسيولوجيا الحضرية تتوزعه في الغالب أربع مقاربات أساسية، لكل مقاربة تصور خاص عن موضوع السوسيولوجيا وعن منهجية تناوله. وهذه المقاربات هي:

1 ـ المقاربة السيكوـسوسيوـ إيكولوجية: تركز على دراسة سلوك الأفراد وتمثلاتهم ومواقفهم وكل ممارساتهم داخل المدينة. أي التي تحدث في المدينة وتكون نتيجة للمدينة. وهذه المقاربة تشكل امتدادا لتقليد مدرسة شيكاغو

2 ـ المقاربة السوسيوـ اقتصادية: تهتم بتحليل إنتاج المجال، انطلاقا من انشغالها بالعلاقات الاج للإنتاج عموما. وهي مقاربة ارتبطت بالتيار المادي التاريخي (الماركسي) في السوسيولوجيا خصوصا في فرنسا في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي.

3 ـ المقاربة المؤسساتية: تهتم بدور الفاعلين الذين تجاهلتهم المقاربة السوسيوـاقتصادية. تطبق المبادئ العامة لسوسيولوجيا التنظيمات وتوظف مفاهيمها (الفاعل، الدور، الصراع، الأفعال العرضية،...) .

4 ـ المقاربة السوسيوـ ثقافوية: تعطي أهمية كبيرة للقيم وأنساقها. فتدرس مسألة تأثير القيم على إنتاج المجال. إنها تتعارض مع المقاربة السوسيوـاقتصادية التي ترفض اعتبار أي دور للقيم ولأنساق العيش، كما تعد متجاوزة للمقاربة الأولى السيكوـسوسيوـ إيكولوجية التي تعتبر المدينة منتجة للمواقف والممارسات.[6]

وبعد تتبع هذه المقاربات وما كتبه الباحثون حول الموضوع قدم تعريفا كما يلي: "إننا نتصور السوسيولوجيا كتحليل علمي للمحددات الاجتماعية للممارسات (تمثلات ومواقف) التي تتكرس أحيانا في شكل مؤسسات تمارس بدورها تأثيرا على الممارسات.
والسوسيولوجيا الحضرية ليست سوى تطبيق لتلك المقاربة السوسيولوجية على حقل محدد من حقول العالَم الاجتماعي. إن لها إذن موضوعا مزدوجا: من جهة تحليل المحددات الاجتماعية للممارسات التي تتكرس في مؤسسات خاصة هي: المدينة، والبنيات السكنية والتجهيزات، ... ومن جهة أخرى تحليل مفعول هذه المؤسسة أو هذه العناصر على الممارسات. موضوع مزدوج وبعد مزدوج: السياسة الحضرية والحياة اليومية".[7]
هذا الاقتراح من أباليا ساهم في تقدم البحث وتطوره في مجال الموضوعات التي يحبل بها المجتمع الحضري، لكن دون أن يحل المشكلة نهائيا. فلا زال هناك تشكيك ونقد لهذا التخصص، لكن بالمقابل هناك باحثون يتوجهون إلى دراسة موضوعاتهم دون الاهتمام بهذا الإشكال الابستمولوجي، وما فتئت الدراسات والبحوث تتطور حول قضايا المدينة، كالتحضر والإدماج والثقافف والانحراف ..إلخ.

---

[6] ـ لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى:
ـ عبد الرحمن المالكي، الثقافة والمجال: دراسة في سوسيولوجيا التحضر والهجرة في المغرب، منشورات مختبر سوسيولوجيا التنمية الاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس، ط. 1، 2015، صص. 17 - 20.
[7] ـ نفسه، ص. 21.

وهكذا يمكن أن نلاحظ بأن علم الاج الحضري يهتم ويقوم بدراسة المدينة وكل ما يرتبط بها من أشكال التحضر والتمدن والمحيط الإيكولوجي، ومختلف العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية السائدة ضمن هذا النسيج المديني المترابط. كما أن علم الاجتماع الحضري يمكن أن يحيل كذلك على مختلف البحوث والدراسات الميدانية التي تم إنجازها حول ساكنة المدن أو المجالات الحضرية عموما.

وكأن علم الاجتماع الحضري يهتم من جهة **بالمورفولوجية الاجتماعية،** أي مختلف أشكال العلاقات التفاعلية والتحولات القائمة داخل تنظيمات المجتمع بالمدينة؛ بمعنى آخر الشكل الذي يتخذه المجتمع ضمن المجال؛ ومن جهة أخرى بما يسمى **المورفولوجية الحضرية،** أي دراسة أشكال المدينة بسَكنها ومآثرها وكل تهيئتها. ومن دون شك فإن معرفة حقيقة التفاعلات بين المورفولوجية الاجتماعية والمورفولوجية الحضرية يمكن أن يقود إلى اقتراح وتنفيذ برامج ومشاريع لفائدة ساكني المدن ومستقبلها.

لكن المشكلة التي تبقى ماثلة أمامنا هنا هي ذات بعدين: 1ـ إن هذه المجالات هي موضوع لعلوم أو تخصصات أخرى مثل الجغرافيا والهندسة والإيكولوجيا وعلم النفس وعلم النفس الاجتماعي وعلم الاقتصاد وعلوم أخرى. ومن دون شك فإن الدراسات التي تقام في إطار هذه العلوم تغني السوسيولوجيا إن تم الاطلاع عليها. 2 ـ إن مفهوم المدينة يبقى عصيا على التحديد والحصر العلمي الدقيق، وإن كانت كل الدراسات المحسوبة على السوسيولوجيا الحضرية مرتبطة بهذا المسمى المدينة أو المجال الحضري. فكيف شكلت المدينة موضوعا للسوسيولوجيا؟؟ وكيف ينظر علماء الاجتماع إلى المدينة؟؟؟

قبل موافاتكم‌ان بتتمة محتويات هذه الوحدة يمكنكم‌اكن الرجوع إلى بعض المراجع التي اقترحتها عليكم في الحصة الأولى لهذه الوحدة، وخصوصا مقالتي مانويل كاستيلز المذكورتين أعلاه، وكتاب أستاذنا عبد الرحمان المالكي المشار إليه أيضا.

بالتوفيق